التفسير

من مفردات القرآن

للأستاذ

محمد جميل غازي

الأمثـــــال

﴿ مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ، صم بكم عمى فهم لا يرجعون ، أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ، يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير ﴾

* * *

● وأصل المَثَل - بفتحتين - هو النظير والمشابه ، ويقال أيضاً : مِثْل - بكسر الميم وسكون الثاء - ويقال : مثيل ، كما يقال : شَبَه ، وشِبه ، وشبيه . وبدل ، وبِدْل ، وبديل ، ولا رابع لهذه الكلمات فى مجىء فَعَل ، وفِعْل ، وفعيل ، بمعنى واحد .

● وقد اختص لفظ المَثَل - بفتحتين - بإطلاقه على الحال الغريبة الشأن ، لأنها بحيث تمثل للناس وتوضح !

و « أمثال العرب » باب من أبواب بلاغتهم ، وقد خصت بالتأليف ، ويعرفونه ، بأنه : « قول شبه مضربه بمورده » !

● قال الزمخشرى فى كشافه : « ولضرب العرب الأمثال ، واستحضار العلماء

المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيئات المعاني ، ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل في صورة المحقق ، والمتوهم في معرض المتيقن ، والغائب كالمشاهد .

ثم يقول : « ولأمر ما أكثر الله تعالى في كتابه المبين أمثاله ، وفشت في كلام رسوله صلى الله عليه وسلم وكلام الأنبياء والحكماء ، قال تعالى : (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) .

* * *

● وقد ضرب الله سبحانه وتعالى للمنافقين مثلين ، في هذه الآيات التي صدرنا بها هذا البحث .

ففي المثل الأول : شبههم الله بقوم أوقدوا نارًا لتضيء لهم ، وينتفعوا بها ، فلما أضاءت لهم النار ، فأبصروا في ضوئها ماينفعهم ويضرهم ، وأبصروا الطريق - بعد أن كانوا حيارى تائهين - فهم كقوم مسافرين ضلوا عن الطريق ، فأوقدوا النار لتضيء لهم ، فلما أضاءت لهم - وأبصروا وعرفوا - طفئت تلك الأنوار ، وبقوا في الظلمات لا يبصرون ، قد سدت عليهم أبواب الهدى الثلاث - فإن الهدى يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب مما يسمعه بأذنه ، ويراه بعينه ، ويعقله بقلبه - وهؤلاء قد سدت عليهم أبواب الهدى ، فلا تسمع قلوبهم شيئاً ، ولا تبصره ، ولا تعقل ما ينفعها وقيل : لما لم ينتفعوا بأسماعهم وأبصارهم وقلوبهم ، نزلوا بمنزلة من لا سمع له ولا بصر ، ولا عقل ، والقولان متلازمان .

● وقال الله تعالى في صفتهم (فهم لا يرجعون) لأنهم قد رأوا في ضوء النار ، وأبصروا الهدى ، فلما طفئت عنهم لم يرجعوا إلى ما رأوا وأبصروا .

وتأمل قوله تعالى : (أضاءت ما حوله) كيف جعل ضوءها خارجاً عنه منفصلاً ، ولو أن الضوء كان متلبساً به ، داخلاً فيه ، لما ذهب .. لكنه كان ضوءا عارضاً ، والظلمة أصلية ، فرجع إلى معدنه ، وبقيت الظلمة في معدنها !

وتأمل قوله تعالى : (ذهب الله بنورهم) إنه لم يقل : بنارهم ، ليطابق أول الآية ، ولأن النار فيها « إشراق » و « إحراق » فذهب بما فيها من « الإشراق » - وهو النور - وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق - وهو النار - !

❁ وتأمل كيف قال : (بنورهم) ولم يقل : بضوئهم ، مع قوله : (فلما أضاءت ما حوله) لأن الضوء زيادة فى النور ، فلو قيل ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل ، فلما كان النور أصل الضوء كان الذهاب به ذهاباً بالشىء وزيادة . وأيضاً ، فإنه أبلغ فى النفى ، وأنهم من أهل الظلمات الذين لا نور لهم !!

❁ وتأمل مطابقة هذا المثل - لما تقدمه من قوله تعالى : (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) كيف طابق هذه التجارة الخاسرة ، التى تضمنت هول الضلالة والرضا بها - بدلاً عن النور - فبذلوا الهدى والنور ، وتعوضوا عنه بالظلمة والضلالة ، فيا لها من تجارة ما أخسرها ، وصفقة ما أشد غبنها !

❁ وتأمل كيف قال تعالى : (ذهب الله بنورهم) فوحده ، ثم قال : (وتركهم فى ظلمات) فجمعها ؛ فإن الحق واحد ، وهو صراط الله المستقيم - الذى لا صراط يوصل إليه سواه - وهو عبادته وحده لا شريك له بما شرعه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم لا بالأهواء والبدع .. بخلاف طرق الباطل فإنها متعددة متشعبة ولهذا يفرد سبحانه الحق ويجمع الباطل ، كقوله تعالى : (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) وقال تعالى : (وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) فجمع سبيل الباطل ، ووحد سبيل الحق .

قال الحسن رضى الله عنه - معقباً على هذا المثل - هو المنافق أبصر ثم عمى ، وعرف ثم أنكر .

* * *

وفى المثل الثانى : شبه الله سبحانه وتعالى الهدى الذى هدى به عباده بالصيب ، لأن القلوب تحيى به حياة الأرض بالمطر ، وشبه نصيب المنافقين من هذا الهدى بنصيب من لم يحصل له نصيب من الصيب إلا ظلمات ورعد وبرق ، ولا نصيب له - فيما وراء ذلك - مما هو المقصود بالصيب من حياة البلاد والعباد والشجر والدواب ، وأن تلك الظلمات التى فيه ، وذلك الرعد والبرق ، مقصود لغيره ، وهو وسيلة إلى كمال الانتفاع بذلك الصيب ؛ فالجاهل لفرط جهله - يقتصر على الإحساس بما فى الصيب من ظلمة ورعد وبرق ولوازم ذلك من برد شديد ، وتعطيل المسافر عن سفره ، والصانع عن صنعته ، ولا بصيرة له تنفذ إلى ما يؤول إليه أمر ذلك الصيب فى الحياة والنفع العام ، وهكذا شأن كل قاصر النظر ضعيف العقل ، لا يجاوز نظره الأمر المكروه الظاهر إلى ما وراءه من كل محبوب وهذه حال أكثر الخلق - إلا من سحب بصيرته - فإذا رأى ضعيف البصيرة ما فى الجهاد من التعب والمشاق ، والتعرض لإتلاف المهجة ، والجراحات الشديدة ؛ لم يقدم عليه لأنه لم يشهد ما يؤول إليه من العواقب الحميدة ، والغايات التى إليها تسابق المتسابقون ، وفيها تنافس المتنافسون .

وحال هؤلاء حال الضعيف البصيرة والإيمان ، الذى يرى ما فى القرآن من الوعد والوعيد ، والزواجر والنواهى ، والأوامر الشاقة على النفوس التى تفطمها عند رضاعها من ثدى المألوفات والشهوات - والفطام على الصبى أصعب شىء وأشقه - والناس كلهم صبيان العقول إلا من بلغ مبلغ الرجال العقلاء الألباء ، وأدرك الحق علماً وعملاً ومعرفة ، فهو الذى ينظر إلى ما وراء الصيب وما فيه من الرعد والبرق والصواعق ، ويعلم أنه حياة الوجود .

* * *

هذا كلام ابن القيم رحمه الله حول المثلين نقلته ببعض التصرف وهو كلام - كما ترى - ينبغى أن يتأمله المسلم ويتفهمه ! .

ولقد عرفت - وعرفت - من المثلين كيف أن المنافقين فقدوا النور والأمان فى هذه الحياة الدنيا.

وتوضح لنا « سورة الحديد » كيف أنهم فقدوا النور والأمان فى الحياة الآخرة كذلك يقول الله تعالى : (٥٧ : ١٢ - ١٥ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم ، يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ينادونهم ألم نكن معكم قالوا : بلى ، ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور ، فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير).

وهكذا ، ضاع من المنافقين كل شىء ، الأمل ، والأمان ، والنور وعاشوا حيارى يضربون فى بيداء الحياة دون وازع ، أو هادٍ ، أو مرشدٍ أمين ! .

وصدق الله العظيم (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) .

محمد جميل غازى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكُ فِى السَّمَوَاتِ أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠) صدق الله العظيم

الآيات من ٣٨ إلى ٤٠ من سورة فاطر